الدرس الثامن حلف الفضول

طلابنا الأعــزاء، الســـلام عليكم ورحمة الله وبركاتـــه، مرحبا بكم في درس جديد ممتع من دروس الســـيرة المصطفى العدناني صلى الله عليه وسلم بعد حرب الفجار الذي تكلمنا عنه في الدرس الماضي،

تداعى سادة القوم إلى حلف جديد سمي حلف الفضول. والذي كان تأسيسه في شهر ذي القعدة عـام 33، قبل الهجرة. حوالي ال591 ميلادي. بعد أربعة أشهر من حرب الفجار، فتعاقدوا و تعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه. وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، تداعى إلى هذا الحلف خمس قبائل من قريش، بنو هاشم، ومعهم طبعا بنو المطلب، وبنوا أسد بن عبد العزى زهر بن كلاب تيم بن مرة، وواحدة من كنانا هم بنو الهون، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جـدعان التميمي لمكانته شـرفا وسنا.

وهو ابن عم والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه. ويعد أحد سادات قريش وسيد جميع كنانا في حرب الفجــار ضد قيس عيلان، والذي قام بتجهيز ألف مقاتل من كنانا، وكان معروف عنه الكـرم والجـود، وكـان في مبطلع شبابه سلوكا يسلب الأغنياء لأجل إطعـام الفقـراء، وهو ما جعله في اصـطدام مع أسـياد مكة الأثريـاء في بداية أمره.

حتى أبغضه قومه، وعشيرة أهله وقبيلته، حتى أبوه. فخرج ذات يوم في شعاب مكة حائرا بائرا، فرع شـقا في جبل، فظن أن يكون بي شيء يؤذي، فلما دنى منه إذا هو غار، فإذا فيه قبور لملـوك جـرهم وكنـوزهم وألـواح من الذهب والفضة، ثم انصرف إلى قامه فأعطاهم حـتى أهبـوه وسـاده، وجعل يطعم النـاس، وذكـروا أنه كـان يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن.

حتى سمع قول أمي بن أبي السلط، ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم، فرأيت أكـرمهم بن الـديان الـبر يلبك بالشـهادة، طعــامهم لا ما يعللنا بنو جــدعان، فكأنه لمز لعبد الله بن جــدعان في عــدم مســاواته لبن الــديان في الإكــرام والإطعام، وهي قبيلة بني الحارث بن كان.

فأرسل بن جدعان إلى الشام 2000 بئر. وعـادت تحمل الـبر والشـهد والسـمن، وجعل منـادي ينـادي كل ليلة على ظهر الكعبـة، أنه لمـوا إلى جفنـة، أي قصى قصـعة بن جـدعان،وكـانت لو جفنا يأكل منها الـراكب على بعيره، وقد وقع فيها صغير فغرق، وهذا يدل على سعة حجم هذه القسعة المعدة للأكـل، وقـال النـبي صـلى الله وسـلم لقد كنت أسـتظل بـذل جفنة عبد الله بن جـدعان سـكة عمي، يعـني بالهـاجرة وقت وقت الظهـيرة، وفي صحيح مسلم أن عائشة رضي الله عنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم وقـالت يا رسـول اللهـابن جـدعان، كان في الجاهلية يصل الـرحم، ويطعم المسـكين، فهل ذلك نافعـه؟ قـال لا ينفعـه، إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئة يوم الدين.

فلم ينفعه، إطعامه وكرمه بدون إيمان، وأحفاده الآن كثر، كثر اليوم، خاصة في فلسطين، وأغلبهم من البدو يعرفون بقبيلة الجدعاني القرشي، أما سبب هذا الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة وهي من القبائل القحطاني اليمنية واشتراها منه العاصمة وائل السهمي سيد بني سامي.

وقد كان أحد المستهزئين بالنبي صلى الله عليه وسلم، فدعى عليه، فقال اللهم صلت عليه شوكة من أشواك الأرض. فما هي إلا مدة وجيزة حتى أصيب في قدمه بشوكة، فتورمت قدمه، فأصبح طريح الفراش لا يستطيع القيام، حتى جافت قدمه وأخذت تموت وأخذ الضرر ويسري في جسده، وكان سبب موته مصداقا لدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليه، ولهذاوجب الحذر من الاستهزاء بسنن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد يهدي هذا إلى الكفر والعياذ بالله، فقد يجت، فقد تجد من يستهزئ بالسنن كلباس النبي ونحيته، وسواكه وطريقة أكله، حتى أن البعض يستهزئون من ينصحه بالأكل باليمين، فتجده يستعمل الشوكة والسكين، ويأكل بشماله، ولا يلتفت للناصح.

ثم يأخذ منه التمادي في ذلك شيئا فشيئا، إلى الاستهزاء بكل ما هو شرع، ومنهج محمدي. نسأل الله السلامة. وكان العاص بن وائل قد حبس عن هذا الرجل حقه، فاستعد عليه الأحلاف عبد الدار ومخزوما، وجمحا، وسهما وعديا،فلم يكترثوا له فعل جبل أبي قبيس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعا صوته يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة ناء الدار والنفر، ومحرم أشعث لم يقض عمرته يا للرجال، وبين الحجر والحجر، إن الحرام لمن تمت كرامته.

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب. وقال مالي هذا مطرق. من أشراف سادات قريش، وأحد حكامها، وهو أسن من أبي طالب ابني عبد المطلب، كما كان الزبي سيدا شاعرا رئيسا لبني هاشم وبني المطلب في حرب انفجار متميزا برجاحة عقله وحسن نظره وفهمه، ولكنه لم يدرك الإسلام، فقد وفي قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم حتى.

اجتمع الذين مضى ذكرهم في بيت عبد الله بن جدعان. وقام بصنع الطعام لهم، وكان ذلك في شهر ذا القطع ذي القعدة، فتم التعاقد والتعاهد بالله أن يكونوا يدا واحدة مع الشخص المظلوم على الظالم. وذلك ليرجع إليه حقه ما، بل بحرا صوفا، وما رصى حراء، وثبير مكانهما أي إلى الأبد.

وقال الزباري بن عبد المطلب حلفت لنعقدان حلفا عليهم، وإن كنا جميعا أهل دار. بنسميه الفضول، إذا عقدنا يعذبه الغريب لدى الجوار، ويعلم من حوالي البيت أن أباة الضيم نمنع كل عار، فقامت قريش وسمت هذا الحلف بحلف الفضول، حيث قالوا لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر، ثم ذهبوا إلى العاص بن وائل، فأخذوا منه تجارة الزبيدي، ودفعوها إليه.

وشهد هذا الحلف. رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقال بعد أن أكرمه الله برسالةلقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا، ما أحب أن ليبي حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت، وهذا الحلف روحه، تنـافي الحمي الجاهلية التي كانت العصبية تثيرها، فحارب انفجار قد كانت في شهر حرام، وحلف الفضول سيتم أيضا فيـه، وكأنه بهذا التوافق يمثل.

محـوا إيجابيا لعمل سلبي سبق وحدث. في حين أن الحرب قد تمت بحلف، ولكن من غير تعاقد، وإنما هي تـدافع قبلي واجتمـاعي، وحميـة، يتبعها قـانون عنصر أخـاك ظالما أو مظلوما. بينما حلف الفضـول قد كـان ذا طبيعة تعاقدية، شرعية وحضارية مبنية على مناصرة المظلوم دون الظـالم، وهـذا ما يؤشر على أن قـريش أو العرب عموما لم يكونوا في جاهلية مطلقـة، وفوضى عارمـة، وإنما قد كـان لهم ضـمير، ويحـدث شـعور قابلة للصقل والإثارة، وسرعان ما يتنبهون إلى الفضيلة.

بالرغم من جثامة أورام الشرك وأوهام الأوثان على قلوبهم. الـتي قد جـاءت الـدعوة النبـوي الإسـلامية لمحقها من جذورها، ومحي ومحو آثارها ومظاهرها، ومن هنا فقد كان خيـارهم في الجاهلية خيـارهم في الإسـلام إذا فقهوا. كما أكده صلى الله عليه وسلم.

وإذا كـان الأمر هكـذا، فـإن حضـور النـبي صـلى الله عليه وسـلم بين قومـه، وهم على هـذه الصـفة، والقابلية للإيجابية والسلبية ي، سيكون جد مؤثر في سـلوكهم لا محالـة، خاصة وهو الملقب بينهم بـالأمين، وهي السـفة التي ستبقى بالنسبة إليهم مطمحا وتطلعا ما بعده من تطلع.

فقد عجز الكثير منهم عن الدنو من أنفاسه، أو تعقب آثار خطواته. فأمانته صلى الله عليه وسـلم هي الـتي أهلته لأن يحضر هذا الحلف، ويكون شاهدا على قراراته، ومزكيا له بهمته، بل سـيكون هو من وضع ختمـه، وطبع له بالعدل الذي يمثله، الذي يمثل صلى الله عليه وسلم محوره في هذا الوجود.

وهذه أيضا من فضـائله صـلى الله عليه وسـلم قبل مبعثـه، إذ إنه لم يكن يحـذر، أو يشـهد تحالفـات. تنبـني على الشر أو الغدر بتاتـا، وإنما كـان يكـون دائما وأبـدا، حيث يوجد مظهر للعـدل والصـلاح أو الإصـلاح، ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم سن الخامسة وال20.

بدأ شيئا فشيئا يتعلم أساليب التجارة، وقد روت نفيسا بنت منية نسبة إلى أمهـا، واشـتغلت بهـذا الاسم. قـالت لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم 25 سنة، وليس له بمكة اسم إلا الأمين. لما تكاملت فيه من خصـال الخير، قال له أبو طالب يا ابن أخي، أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، ولحت علينا سنون منكـرا، وليس لنا مادة ولا تجارة، وهذه عـير قومـك، قد حضر خروجها إلى الشـام، وخديجة بنت خويلة تبعث رجـالا من قومك في إيرانـها.

فيتجرون لها في مالها، ويصيبون منافع. فلو جئتها فوضعت نفسك عليها، أسرعت إليك، وفضلك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك، وإن كنت لا أكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهود، ولكن لا. د. لا نجد من ذلك بد. وقد أورد من إسحاق، فقالكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه.

وكانت قريش قوما تجار، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من صدق حديثه، وعظيم أمانته، وكرم أخلاقه، بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجرا إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة.

فقبله منها رسول الله صل الله عليه وسلم، وخرج في مالها ذلك، ومعه غلامها ميسرة، حتى قدم الشام. وجعل عمومته يوصون به أهل العير، حتى قدم، فنزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبا من صومعة رهب يقال له نسطورة، فاتطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه، فقال يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ فقال ميسرة رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهبما نزل تحت هذه الشجرة إلا نبي.

ثم قال له في عينيه حمرا؟ قال ميسرة نعم، لا تفارقه. قال الرهب هو هو، وهو آخر الأنبياء، ولا. ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج،وبعد انتهاء الرحلة والعودة منها إلى قريش، قام ميسرة بإخبار السيدة خديجة بكل ما ذكرناه، وهذا الأمر زاد من فرحتها، حتى أتى زواجها من النبي صلى الله عليه وسلم، وتمت بهجتها الكاملة بمبايعة النبي بالنبوة، لم يذكر المؤرخون بأن ميسرة غلام خديجة قد أسلم، فقد ذكر بتجارة النبي صلى الله وسلم ومرافقته له.

وغاب ذكره أيام دعوة النبي صلى الله عليه وسلم. ولم. ولم نعلم بأنه أدرك البعث النبوية، ولكن ميسرة كان محبا للنبي صلى الله عليه وسلم مشاهدا الملكين على رأسه وكتفيه. كما رأى كريم أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، بل نستطيع أن نجزم بأنه كان شديد الإعجاب بالنبي صلى الله عليه وسلم، ولو أدرك البعثة الأسلم وفداها بنفسه، والله أعلم إلى هنا نكون قد أنهينا درسنا، دمتم في رعاية الله، السلام عليكم ورحمة الله.